الفصل الثالث

الثقافة العربية والعولمة

د. عبد الناصر حسن محمد(*)

على الرغم من كون العولمة مصطلحا ذائع الصيت والشهرة بين عامة الناس وخاصتهم، وعلى الرغم من أن المصطلح من المفاهيم التي تناولها الكتاب كثيرا فإنه مازال إلى الآن يحيطه من الغموض، ويكتنفه غير قليل من الشك والالتباس. مازال موضوع العولمة من الموضوعات الرئيسية التي تثير نقاشا عريضا في معظم أقطار العالم العربي فقد ارتبط ذكرها بالمستقبل، صار التفكير فيها تفكيرا في المستقبل القريب والبعيد معا.

لكن إذا كانت العولمة قد ارتبطت في الطور الأول من ظهورها بعالم الاقتصاد وعالم المال بشكل خاص، فان الميل يزداد اليوم في الأوساط الدولية المعنية على طرح قضية العولمة في العالم الثقافة.

في محاولة لرصد واستكشاف مستقبل العلاقة بين ما أطلق علية نظام العولمة وبين الثقافة بعامة ونحن على أعتاب الألفية الثالثة تبين لنا أن ثمة هوة فاصلة تميز بين اتجاهات مختلفة لدينا في رؤيتنا للعولمة.

ثمة اتجاه يرى أن العولمة ـ بإطلاق ـ شر مستطير يجب مقاومته بشتى الوسائل حتى ولو كانت غير مشروعة، وذلك باعتبارها تمس الأمن القومي العربي والهوية العربية وربما الهوية الدينية بشكل مباشر.

وفى الوقت نفسه اعتبرها فريق أخر فرصة للنهوض من الكبوة الثقافية التي يعيشها المثقف العربي في اللحظة الراهنة.

ويقف فريق ثالث موقفا ليبراليا يرى أن العولمة شانها شان أية ظاهرة عالمية تحمل بين طياتها مزيجا معقدا من الخير والشر معا، وعلى المثقف العربي بوعيه وتاريخه الحضاري الطويل أن ينتقى منها ما يفيده.

(*) أستاذ الأدب العربي المساعد بقسم اللغة العربية ـ كلية الآداب ـ جامعة عين شمس.

ومن أجل مزيد من التفصيل بهدف تجلية المواقف المتباينة في عالمنا العربي تجاه مفهوم العولمة نحاول أن نعرض الآراء التالية (بعضها من جريدة الشرق الأوسط عدد ١١/ ٢/ ٢٠٠١م، ففي الصفحة السابعة عشر: يعلق د: أسامة الباز آمالا عريضة وثقة كبيرة على قدرة الثقافة العربية الصمود أمام رياح العولمة استنادا لتاريخها الحضاري الكبير، وهو يرى أن العولمة ممكنة في المجالات الاقتصادية والسياسية، ولكنها صعبة التطبيق في الحقل الثقافي، نظرا لخصوصية كل ثقافة، وتمسك كل شعب بخصوصياته الثقافية.

كما أن تذويب كل ثقافات الشعوب في ثقافة واحدة أمر أقرب للأسطورة منه إلى الحقيقة، وحتى إن أمكن تصوره واقعا، فإنه قد يحتاج إلي خمسة عشر قرنا للتجهيز والأعداد.

وإذا كان الباز يرى صعوبة تحقق العولمة على المستوى الثقافي، فإن هناك من يرى إمكانية تحققها والتفاعل معها بشروط.

لقد دعا كل من: جميلة على رجاء المستشار بالسفارة اليمنية بالقاهرة ود: عبد الولي الشميرى رئيس منتدى المثقف العربي إلى الصمود والتصدي للعولمة عبر وسائل ثقافية وحضارية بعينها.

وقد رأت جميلة هذا التصدي في اتخاذ كل التدابير الوقائية للحفاظ على الهوية القومية، ليس بالانغلاق لكن بالمواجهة الجادة تقول: "إن العولمة الثقافية جاءت لتحمل معها ميكورب الفناء" "لبعض الحضارات الإنسانية ومن هنا ينبغي سرعة مواجهتها"، لكنها لم تحدد آليات بعينها لهذه التدابير التي تتحدث عنها.

بينما رآه د: عبد المولى في إحياء الثقافة العربية وتجاوز الأزمة الراهنة حتى نستطيع الصمود أمام وجه الريح" غير الطيبة " للعولمة.

يحدث ذلك بالاهتمام بالإنتاج الثقافي ورعاية الإبداع والمبدعين منذ النشأة، والحرص على تفعيل اللغة العربية في الخطاب اليومي لرجل الشارع باعتبارها أهم ركائز الثقافة العربية.

ويمثل موقف محمود أمين العالم من العولمة موقف المثقف العربي الحائر، والمتردد في اتخاذ قرار واضح تجاه العولمة حيث يقول: "انتحار أن ندير ظهورنا للعولمة، وانتحار أيضا أن نندمج فيها".

وهو ينعى الوضع القائم للمثقف العربي في كونه لا يزال عالة على الثقافة الغربية، كما أن النظريات الأدبية المعاصرة في الوطن العربي كلها نظريات مستعارة من الآخر الغربي، ودور المثقف العربي فيها دور استهلاكي.

وفى الوقت نفسه فإن ثقافتنا العربية الحالية تتسم بالهشاشة مقارنة بالثقافة العربية الإسلامية في القرون الثمانية الاولى من عمرها.

وفى لغة يغلب عليها التبرم والضيق من الأوضاع الراهنة نرى محمود أمين العالم يشبه العالم بحديقة حيوان تهيمن فيها وحوش الليبرالية على كل شى، وتزيل وتقتلع كل ما هو جميل من خلال تجارة السلاح والدعارة والمخدرات.

ولقد ضرب أمثلة على ما أسماه "غول العولمة" ذاكرا أن ٢٠٪ من دول العالم تسيطر على اكثر من ٨٠٪من التجارة العالمية، وأن ثروة أغنى ثلاثة رجال في العالم تتعدى صادرات عدة دول نامية يزيد سكانها عن ٦٠٠ مليون نسمة.

وتساءل العالم : كيف نقاوم العولمة، ونسبة ٧٥٪ من تراثنا الثقافي لم يحقق في حين أن إسرائيل قامت بترجمة كل التراث العبري قبل إنشاء دولتها اليهودية.

وفى ختام كلامه شدد العالم على أن المثقف العربي يريد بالتأكيد عولمة إنسانية ـ إن صح التعبير ـ وليست استغلالية.

ويرى د: فاروق هاشم الأستاذ بإعلام القاهرة – راصدا التوجه العالمي ضد العولمة ناحيا باللائمة على المثقف العربي ـ أن المثقف العربي ما زال سلبيا في مواجهة العولمة الثقافية، وأنه لم يتظاهر مثقف واحد ضد العولمة مثلما تظاهر الشباب والشيوخ فى سياتل، ودافوس.

ويربط باحث آخر هو عبد الرحمن الوجيه – في توجه اقتصادي واضح ـ بين العولمة وبين الأطماع الغربية والأمريكية ذات الروح الاستعمارية.

وفى الوقت نفسه يرى أن الغرب يعمل جاهدا من أجل إشاعة العولمة باعتبارها وسيلة لإزالة الحواجز، وفتح الأسواق أمام المنتجات الأمريكية، داعيا إلى الاستفادة من تجربة الانضمام للأمم المتحدة قبل الانضمام لمنظمة التجارة العالمية.

وفى عودة للبعد الثقافي للعولمة يطالعنا رأيان: الأول يمثل الخطر على صعيد خارجي وهو لعلى عبد الكريم الأمين المساعد للجامعة العربية، حيث ينبهنا إلي خطورة العولمة في مطاردتها للثقافة العربية في كل لحظة، حيث اقتحمت علينا البيوت، وهو ينصح أيضا بان يكون الحديث عن العولمة مثل الواجب اليومي للمثقف العربي.

أما الرأي الأخر فيمثل الخطر على صعيد داخلي حيث يرى : نبيل على ضرورة تحديد العلاقة بين سلطة الثقافة وثقافة السلطة في الوطن العربي.

وقد أشار إلى أن ثقافة السلطة في بعض العواصم العربية تطغى على سلطة الثقافة، ثم تساءل هل ترى السلطة الإعلامية وسيلة للتنوير أو وسيلة للدعاية في بعض الأنظمة؟ وهل السلطة مع المبدع الحقيقي أم مع أصدقاء بعض النظم؟ وهل المصادرات لبعض الأعمال الأدبية كان بهدف حماية الهوية والتقاليد أو لإرضاء قوى سياسية معينة .

وأيا ما كان الأمر فإن نظرة متأنية فاحصة تكشف لنا أن مسألة العولمة ما عادت مجرد علاقة بين المركز والمحيط، أو بين القوة والضعف، أو بين الغنى والفقر، بل إنها أصبحت متجسدة عبر نشوء شبكة معقدة من الاتصالات العالمية التي تجعل جميع الاقتصادات والبلدان والمجتمعات تخضع لحركة واحدة، أو تدور داخل إطار واحد.

وربما يجسد هذا ويبرزه ما نراه من اندماج ثلاث منظمات رئيسية في حياتنا الاجتماعية وعلى الصعيد الدولي وهى :

١ . المنظومة الاقتصادية: حيث صرنا نعيش في إطار سوق مركزية لرأس المال بالإضافة إلى بورصة عالمية واحدة على الرغم من تعدد مراكز نشاطها وتفرعها.

٢ . المنظومة الإعلامية : وربما الاتصالية، فعبر أجهزة الاستقبال الحديثة من قنوات تليفزيونية، وعبر الأطباق الهوائية، يمكن أن يتكون جمهور معولم، إذا صح التعبير، حيث يتم البث حاملا توجها ما لجمهور عالمي بالدرجة الأولى قد تذوب خصائصه الثقافية إلى حد بعيد .

٣ . المنظومة المعلوماتية: وهى تتجسد عبر شبكة معلومات ضخمة هي شبكة الإنترنت، إنها شبكة واحدة يشارك فيها جميع الأفراد من كل جنس ومن كل ثقافة يتلقون معلومات وعروضا واحدة بصرف النظر عن انتماءاتهم السياسية والأيديولوجية أو حتى الثقافية.

ويتأتى من محصلة هذا الاندماج توحيد لمصادر المعلومات وتوحيد لشبكات الاتصال، ومن جهة ثالثة دمج أقوى لوسائل الاتصال .

وقد يترتب على هذا الاندماج ـ إن حسنت النوايا ـ كثير من الآثار الإيجابية لعل من أهمها ما يمكن أن نرصده في النقاط الآتية :

١ . زيادة الترابط الإعلامي بين مختلف أنحاء العالم، بصورة لم تشهدها البشرية من قبل، قد أدت إلى تقصير المسافات بين الشعوب.

٢ . ظهور أشكال جديدة من التواصل الإعلامي في مجال المشاركة السياسية والعمل الدبلوماسي بوجه عام.

٣ . دخول شرائح جديدة من البشر في دائرة المشاركة المعرفية من خلال المتابعة الإعلامية لمختلف الأحداث العالمية والقرارات المصيرية .

٤ . خلق وعي ديمقراطي حي، وتطوير ما يمكن أن نسميه ديمقراطية الإعلام المرئي والمسموع .

٥ . تكوين حس اجتماعي وأخلاقي موحد ينبذ التطرف والإرهاب في جميع أشكاله ويدعو في الوقت نفسه إلى التقارب بين البشر واعتبار العالم قرية واحدة لها أحلامها، ولها مستقبلها المبنى على أساس من التعاون والمشاركة بين أجزائها .

٦ . التقليل من مساحة النظرات العرقية المتعصبة، والعصبية القائمة على القومية المحلية الضيقة المعادية بطبيعتها للعقل والمنطق .

على أن مثل هذه الإيجابيات تبدو إلى المثال أقرب في تحققها من الواقع، والى الحلم أقرب منها إلى الحقيقة، إذ لا ينبغي أن يبعدنا ذلك عن النظر في كثير من الآثار السلبية التي يمكن أن تتمخض عن هذه العولمة، ولعل أهم هذه السلبيات ما يمكن إجماله فيما يلي :

١ . زيادة الفجوة الاتصالية بين الشمال الغني والجنوب الفقير على مستوى العالم وبين الريف والحضر داخل دول الجنوب .

٢ . تنامي الخلل في التدفق الإعلامي و المعلوماتى من الطرف الأقوى والأغنى إلى الطرف الأضعف والأفقر بحيث يصبح الطرف الأخير دائما في وضع استهلاكي .

٣ . ترسيخ الأنماط التقليدية السلبية والمتحيزة في سريان وتدفق الأنباء المتعمد بترها وتشويهها من دول الجنوب، والتي تقصد بذلك إغفال جميع الإنجازات التنموية التي تحققت في هذه الدول .

٤ . انهيار السيطرة والسيادة القومية الإعلامية، في ظل انهيار المفاهيم التقليدية حول ما يطلق علية الآن : "القومية الحديثة" مثل السيادة على الفضاء والحدود، وصنع السياسات الإعلامية والمعلوماتية، بالإضافة لظهور تقسيمات جديدة للعالم طبقا للجغرافية الفضائية .

٥ . يتم نوع من تفتيت الاتصال الجماهيري تحت شعار ـ أو من أجل ـ تنوع الخدمة الإعلامية ، ويعزز ذلك التوجه ما تتميز به التكنولوجيا الاتصالية الجديدة من سمات : اللاجماهيرية، اللاتزامنية، تفاعلية الفكر العام، وحركية الشيوع والانتشار، مما أدى إلى التركيز على الفرد الذي اصبح بؤرة الاهتمام، والهدف الرئيسي للاتصال الإلكتروني .

٦ . ولقد أسفرت مثل هذه التغيرات في نظم وآليات الاتصال عن نشوء نوع من التفكك في

منظومة العلاقات والقيم الاجتماعية، إذ أصبحت العلامة أحادية بين مرسل الرسالة الإعلامية ومستقبلها، كما أصبح مؤشر التقدم في هذه العلاقة هو سرعة بث المعلومات حتى ولو تم ذلك على حساب الاعتبارات المعرفية.

٧. تؤكد الشواهد أن التدقيق الحر للمعلومات فى عصر العولمة يتميز بطبيعة مراوغة ذات أبعاد متناقضة. فهو لا يؤدى بالضرورة إلى حرية التعبير، ولعل خير شاهد على هذا ما رأيناه في حرب الخليج الأخيرة حيث ثبت أن التدفق الحر للمعلومات لن ينهى عصر الرقابة على المعلومات، وما تذمر المخابرات الأمريكية "CIA" وبعض الدوائر السياسية الغربية في بريطانيا وغيرها من قناة الجزيرة في نقلها لبعض ما يحدث الآن في أفغانستان إلا نوع من الحذر الذي سيؤدى بالضرورة إلى ظهور مفهوم جديد للرقابة في عصر التدفق الإلكتروني للمعلومات يحمى مصالح المتحكمين في السوق العالمية في ظل نظام العولمة.

وأيا ما كان الأمر فإننا نرى طبقا لعرضنا السابق، أن السلبيات التي تعود علينا بها العولمة ـ حتى لحظة الكتابة ـ اكثر بكثير من الإيجابيات.

ويكفى أن أشير هنا إلى أن أهم ما تنادى به العولمة الثقافية، وهو سقوط الحواجز الثقافية، وجميع العوائق الأخرى أمام التدفق الحر للمعلومات والأفكار للأسف لم يؤد إلى التنوع والتعدد في الآراء والأفكار الذي بشرت به العولمة بل على العكس من ذلك حيث إن مثل هذا التوجه يشكل ـ في تطرفه ـ نوعا من التهديد المباشر للتنوع الثقافي الذي هو إحدى سنن التطور في تاريخ البشرية، هذا فضلا عن كونه محاربة مباشرة للخصوصيات الثقافية التي تعتز بها الأمم المختلفة، وتعتبرها جزءا لا يتجزأ من هويتها الحضارية.

كما أنه ينبغي أن نعترف، أن عملية تدفق المعلومات عبر أجزاء الوطن العربي حقيقة اقتصادية تكنولوجية اكثر منها ثقافية واجتماعية. وذلك بسبب صعوبة الوصول إلى شبكات المعلومات بالنسبة للغالبية العظمى من المواطنين، إما لأسباب مادية وإما لأسباب اجتماعية تتعلق بانتشار الأمية والفقر علاوة على بعض القيود السياسية، ولذلك فإن تدفق المعلومات لا يعدو أن يكون وسيلة من وسائل تدعيم الصمت لدى الأغلبية من الأهالى.

وهو في الوقت نفسه وسيلة للدعوة الصريحة إلى التكريس لما يمكن أن نسميه حضارة الاستهلاك، حيث يلجأ المواطنون إلى البرامج الترفيهية والرياضية مما يعد صورة من صور التخدير وتزييف الوعي بالواقع بدلا من التعامل مع هذا الواقع، ومن ثم العمل على تغييره إلى الأفضل

وماذا بعد ؟

وبعد هذا العرض الموجز فإننا نرى أنه إذا كانت العولمة سلاحا ذا حدين قد اصبح

واقعا لا يمكن الفرار منه أو تأجيله فإن السؤال الذي ينبغي أن نطرحه الآن على أنفسنا بشكل مباشر هو: ما الذي يجب علينا أن نقوم به، وما الآليات التي سنعتمد عليها ليس في مقاومة العولمة، بل في التكيف معها والاستفادة منها دون أدنى ضرر.

ومن الواضح أن المسالة ليست مجرد "روشتة" نتبع تعليماتها فنظن أننا انتهينا من مشاكل العولمة – والحديث هنا عن المستوى الثقافي – بل على العكس من ذلك إذ يفترض التعامل الناجح مع العولمة والتحديات التي تطلقها تبدلا أساسيا في توجهاتنا التقليدية ومواقفنا النفسية وان ينبني موقفنا وتوجهنا – فيما أتصور – على الأسس التالية:

١. التخلي عن المواقف الدفاعية التقليدية لصالح مواقف تقوم على الثقة بالنفس والمستقبل، والتهوين بعض الشيْ من الاعتماد على نظرية المؤامرة عند تفسير كل الامور.

٢. تبنى مبادرات إيجابية وبناءة، تهدف إلى تعديل الإطار العام الذي يعيش فيه وتطوير التعاون الجماعي الذي يحقق هذا التعديل.

٣. الشفافية التامة في معالجة كل قضايانا المعاصرة، وهو ما يستدعى أن نعترف بقصور الأطر الثقافية والاجتماعية، والانطلاق من هذا القصور نفسه من أجل احتلال مواقع العالمية، واختراق الهامشية ومن ثم كسر آليات التبعية نحو المشاركة الفعلية والفعالة في الجهود الحضارية الإنسانية.

٤. أن تكون أهدافنا واضحة ومرحلية، وأن تكون محددة بدقة شديدة فعلى سبيل المثال لا الحصر، وعملا بمبدأ الأولويات، فإن أول أهدافنا العملية والواقعية في أن هو الخروج من الهامشية نحو الفعل، والمشاركة والتفاعل مع الثقافات الإنسانية الأخرى، من اجل العمل على تفويض أسس السيطرة الأحادية وتعزيز إطار التعددية الثقافية الكونية في إطار الاحترام المتبادل والتعاون المطرد البناء.

٥. محاولة إحياء التراث الثقافي والفكري للآمة، ومقاومة القطيعة المعرفية بين حاضرنا وماضينا مما يوفر مناخا علميا وفكريا يدفع بنا في اتجاه التراكم الثقافي والمعرفي للحضارة العربية بإبراز خصائصها والكشف عن مميزاتها، فضلا عن إظهار دورها في صنع الحضارة المعاصرة.

وأخيرا وليس آخر فإنه من الممكن أن نقول إنه إذا استبد بنا الهوس في الدفاع والمصارعة والرفض للعولمة بقينا كما نحن سعداء بجهلنا وتخلفنا، وإذا ألقينا بأنفسنا تماما داخل سحر الثقافة الغربية بحيث نذوب في فلكها فقدنا هويتنا.

وهنا ينبغي أن ننتبه إلى أننا لن نربح الصراع ضد السيطرة الخارجية إلا بقدر ما ننجح في أن نمنع هذه السيطرة من أن تكون هاجسنا أي أن تسيطر علينا كليا.

obeikandl.com